

حكاية ابريق الزيت ..

قصة بقلم رزيق الأمير

ضميري ان الاطف كل الناس واجاملهم اذا كان هذا يخفف عن كاهلي
ثقل اساءتي لسعدون .

واقتربت من باب الجامعة الكبير ورأيت الطلاب والطالبات يتمشون
في الفناء ... تمثيت لو كنت اي واحد منهم ممن لم يسيء لسعدون .
مرت بالجائني فاستعجلت آلقي عليه تحية الصباح قبل ان يبدأ هو
كما اعتاد ان يفعل . ورد تحيتي مبتسما فولفت امتدح له آزاهيره
وحديقته وانا اتساءل في سري : هل يرضى سعدون ما فعلت الان ؟
وعدت امشي وعينا سعدون الممثلتان بالدموع امامي كيفما ادرت
وجهي .

صعدت الدرج ، وقرب النافذة التي تطل على الساحة الكبيرة
كانت صديقتي سميرة تتحدث مع كريم وتصرخ في وجهه وهو يحاول
تهديتها وهي لا تريد ان تصفي ولا ان تهدأ او تفهم .

واصلت صعودي الدرج وانا افكر في سميرة وكريم .. اذن لقد
فعلتها سميرة اخيرا . كانت تاتيها رسائل من كريم يحدثها فيها عن حبه
وهيامه وارقه ولوعته ويطلب منها ان تلتفت صوبه حين ينظرها على
باب المكتبة ، وان تسمح باستلام رسائله دون غضب وان لا تنظر اليه
شزرا حين يلاحقها في اروقة الجامعة . كان لا يطلب منها الا السماح له
بالاستمرار في حبه لها . ولكنها وهي ابنة البيت العريق الفنى كيف
تسمح لفنى تكرة لم يسمع احد باسم أسرته ، ويخجل هو عن ذكر عمل
ايه ، ان يستمر في جراته ؟

كانت قد استشارتنا في امر الرسائل وجعلتنا نقرأها لتعرفنا على
اهتمام الآخرين بها ولتثبت لنا انها فتاة محافظة متزنة لا تسمح للرجال
بملاحقتها . وظللت نصيحتنا في اقتراحها ان تعرض الامر على معاون
العميد لشؤون الطلبة كي يوقف كريم عند حده . وطعما وافقنا كلنا
على حسن رايها وصواب تفكيرها واعلنا هذا جهارا لتفهم كل واحدة
منا الاخرى انها محافظة ورزينة .

اما اليوم فحين رأيت سميرة تؤنب كريم ، وهو يتوسل اليها ان
تصفي اليه ، وهي لا تريد وتبكي وتصرخ لتسمع الآخرين والاخرات انها
نفلت تهديدها . اليوم شعرت باسى ... تالمت لكريم .. ما ذنبه
اذا كان قد احب فتاة اسرتها عريقة غنية واسرته هو فقيرة مفورة ؟
وعادت الى ناظري صورتى وانا اعلم لسعدون . هل اتدخل بين
سميرة وكريم واوبخها امامه ؟ هل سيسفيد كريم من تدخلتي شيئا ؟
ماذا يفيد لو افهمته اني رأيت سميرة تهينه فازيد الطين بلة بتدخلتي ؟
اتراني حقيقة متألمة لاجل كريم ؟ ام اني اريد التكفير عن اساءتي
لسعدون بمحاولة اسعاد جميع الناس ؟ اتراني اشفقت على كريم لان
سعدون بتأنيبه الصامت لي اثار في كل كوامن الانسانية التي كنت قد
خفقتها حفظا للمظاهر ؟

وفضلت ان لا اتدخل بين سميرة وكريم فمشيت ودخلت قاعة
المحاضرات واخذت مكاني كعادتي في الصف الاول ، وكالعادة دخل
استاذنا يستند الى ذراع سكرتيره ، فقد كان استاذنا ضريرا . انا
ادري انه ضرير واره تقريبا كل يوم منذ ثلاث سنوات ، فما الذي
المني اليوم لانه لا يستطيع ان يبصر ؟ والسكرتير كان يبدو عليه
الاستسلام للقضاء والقدر بصورة موجهة . مسكين هذا السكرتير ! ان
عليه ان يقرأ ما يريد الاستاذ ان يسمع ، وان يعيد الجمل التي يحلو
للاستاذ اعادتها ان لم تكن الجمل التي لم يفهمها ، وعليه ايضا ان يذهب

- سعدون .. سعدون

وجاء الصغير سعدون راكفا والبسمة على شفتيه وخديه وعينه
ونظر الي بتلهف ينتظر مني ان اعطيه نصيبه اليومي من الدراهم .

- اتريد ان اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟

ونظر سعدون يدهشة وقال :

- وما هي حكاية ابريق الزيت ؟

- ان قلت ما هي حكاية ابريق الزيت او لم تقل ، هل اروي لك
حكاية ابريق الزيت ؟

- نعم ارويا من فضلك .

- ان قلت ارويا او لم تقل هل اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟

فقال مستسلما :

- كما تريد

- ان قلت كما تريد ان او لم تقل هل اروي لك حكاية ابريق الزيت؟

ونظر الصغير سعدون الي نظرة عتاب حائرة وفتح فمه ثم اغلقه ووضع
اصبعه الصغيرة على فمه دلالة على انه لن يتكلم . وحدق في صامتا
فقلت :

- ان سكت ام تكلمت هل اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟ وحين

تعب سعدون من الجواب ضحك ليخفي اضطرابه ولم ارحم انا ضعف
الصغير فعدت اسأل :

- ان ضحكت ام لم تضحك هل اروي لك حكاية ابريق الزيت ؟

ونظر سعدون الي محدقا ولم تحمل لي عيناه اي معنى فبادلته

انا التحديق منتصرة . ثم رأيت عيني سعدون تمتلئ بالدموع ، لقد
عجز سعدون الصغير ابن ابي سعيد بواب بيتنا الكبير عن مجاراتي
في التحدي .. مجاراتي انا ساكنة ذاك البيت الكبير وابنة صاحبه
التي سولت لي نفسي ان افرح بانتصاري على طفل فقير مسكين .

احسست اني اريد ان اصغ نفسي وشعرت بالخزي يتملكني

فاحتضنت الصغير وبدأ هو ينشج بالبكاء بصوت عال ، فقد احس ان
فترة تكبيلي له قد انتهت واصبح له الحق في ان يعبر عن مشاعره .

كنت مستعدة حينذاك ان اعطي سعدون كل ما استطع كي اراه

ضاحكا ثانية .. مرحا مثلما كان قبل ان ابدا انا الفتاة الناضجة تلميذة
الجامعة استقل سداجته وبراهته وضعفه لابانة مهارتي .

كيف سولت لي نفسي ان استغل جهل سعدون بالحكايات

اللبنانية لايبيع على حسابه حصيلة معلوماتي من اسفاري الكثيرة الى
لبنان ؟ واتبجح امامه بما يعرفه كل طفل لبناني ويجعله سعدون لا لانه
اقل منهم ذكاء او دراية ولكن لانه لم يزر لبنان ولم يتعرف على
حكاياتها ؟

وكف سعدون عن البكاء ، لقد كان طبيبا ينسى الاساءة بسرعة .

وفتحت حقيبتي لاعطيه اضحاف ما كنت اعطيه كل يوم ، فعدت الابتسامة
الى شفتيه ، ولكنها لم تصل الى خديه او عينيه . لقد كانت الدموع
تملا عينيه وتغطي خديه .

مشيت لاهرب من منظر سعدون ، ولكن صورته كانت امامي طوال

الطريق الى الجامعة . كنت اتمنى التكفير عن ذنبي باية طريقة . كنت
مستعدة ان افرغ حقيبتي وخزائني لافرقها على الآخرين اذا كان يريح

مع استاذتنا . كانت القناني مصفوفة بترتيب ، الواحدة اثر الاخرى على شريط طويل . ويتحرك الشريط محركا القناني معه ليتوقف في فترات قصيرة تكفي لتعقيم القنينة في مرة ، ولملئها في مرة ثانية ، ثم لاحكام الغطاء عليها في مرة ثالثة . كانت القناني مسيرة ، فهي لا تستطيع هربا من مكانها ولا تغييرا لنظام التعقيم فالملء ثم التغطية . رأيت الفتيات قناني كوكاكولا . تدخل الواحدة من الباب .. ترمي كتبها على المنضدة التي في وسط الغرفة .. تتجه الى المنضدة ثم الى المرآة تتزين وتترتب وتعود الى الباب خارجة منه .

تسمت اتفرج على القناني رائحة غادية امامي ، ونسيت لوهلة دموع الصغير سعدون .. ثم طرقت سمعي كلمة « زيت » كانها ناقوس يوقظني . واعتدلت في جلستي ادبر راسي افنتش عن مصدر كلمة الزيت ، فسمعت تلميذة بجواري تخبر زميلتها عن تأثير الزيت في جعل الشعر ناعما لامعا ، وبينما هي مستمرة في تعديد مزايا الزيت .. مدت يدي اتحسس شعري وفرحت ان وجدته يابسا ، واقسمت لسعدون اني لن استخدم الزيت لتحسينه حتى ولو اصبح جافا كالخطب .

كنت لا ازال امسك بخصلة من شعري اتلذذ بتحسس جفافها ، حين دخلت الصف واقترب مني زميل جديد جاءنا من الجزائر ، سألني معنى كلمة انكليزية . فهو يحسن العربية والفرنسية . اما الانكليزية فكانت لفة جديدة عليه . فاخبرته عن معناها ورأيته يدونها وهو يقرب الدفتر من عينه كثيرا مع كونه كان يرتدي النظارات . وخطر لي ان نظارته لم تعد صالحة ومع ذلك فهو لا يستطيع استبدالها . فكرت ان اعرض عليه تدوين معنى الكلمة على دفتره ولكني توقفت راسا . ماذا : هل اريد ان اولم انسانا جديدا ؟ اما كفاني ما سببته لسعدون ؟ هل اريد ان افهم الزميل الجديد بتحسسي لضعف عينيه ! وعدم صلاح نظارتيه ؟ وعدم قدرته على استبدالهما ؟ ليتني استطعت ان اعمل عملا غير مؤذ اليوم .



تذكرت الان ذلك اليوم من ايام التلمذة حين كنت اقرا خبر ترفيع سعيد ، الى رتبة مدير عام ، سعيد ابن ابي سعيد بواب بيتنا الكبير واخيه الصغير سعدون . كان الخبر منشورا في الجريدة التي يملكها ويرأس تحريرها كريم الذي احب يوما سميرة واعدت حبه لها اهانة . لقد اصبح كريم صاحب اوسع جريدة انتشارا واصبح قادرا على رفع الناس بكلمة منه وانزالهم بكلمة اخرى . اما سميرة التي احبها كريم والتي كتب لها في احدى رسائله التي قرأتها « لا تسأليني كم احببتك . الحب عندي مثل الموت والولادة قضاء من الله وقدر لا ندرى متى وكيف يعلن بنا » . سميرة تلك تزوجت ثريا بعيد تخرجها من الجامعة ، مات وعلى الاصح قتل في حوادث دامية وقعت في مدينته .

والحديث عن سميرة وكريم يجرنا الى الحديث عن اشخاص ذلك اليوم الذي لا استطع نسيانه ، اليوم الذي ابيكت فيه سعدون . اما شاعر الفزل فقد اصبح شاعرا سياسيا بعد ان تزوجت غرة من ابن عميد الدار . فقد قرر شاعر الفزل ان يدخل معترك السياسة ليصلح الاوضاع الاجتماعية ويزيل الفوارق بين الطبقات ويظهر انه وجد قابلياته اخيرا فهو اليوم من اشهر الشعراء السياسيين ومتزوج من الوحيدة التي احبته والوحيدة التي لم يستطع ان يحبها .

الاستاذ الضرب لا يزال يعمل في التدريس في الجامعة وقد ابدل عددا من المرافقين بعد ان فارقه « السكرتير » الذي عاصرناه ، وذهب في بعثة لدراسة التمثيل الى اميركا وقد قرأت مؤخرا انه يعمل على مساح نيويورك بنجاح .

زميلنا الجزائري عاد الى بلاده بعد تخرجه واشترك في الجهاد ، ولكنه قتل قبل اعلان الاستقلال ببضعة اسابيع .

اما الآخرون فلم اعد اسمع عنهم شيئا . حتى سعدون لا اعرف عن امره شيئا ولكني متأكدة انه لا يبكي الان .

ديزي الأمير

الى الاماكن التي يدعى الاستاذ اليها . وتصورت الاستاذ في حفل امامي يجلس على الكراسي المعدة للضيوف والسكرتير يتركه بعد ان يطمئن الى ان جلسته مريحة ليقبع هو في زاوية ينظر الى ان ينتهي الحفل ليعاود عمله اليومي الريب . قد يكون السكرتير ذا طموح ونفس ابية لا ترضى ان تعيش هكذا عينا يبصر بها الآخرون واداة يسجل بها الآخرون ما لا تريد هي تسجيله . تألمت للسكرتير وللستاذ الضرب معا . وانتهت ساعة المحاضرة ولم اسجل على الدفتر منها غير صورة ابريق وعينين مملوءتين بالدموع .

وخرجت من القاعة واقتربت مني زميلتي واعدة ترافقتني فسي طريقي الى غرفة الطالبات ، وبدأت تحدثني عن الحب الجديد « لشاعر الفزل » كما سمينا احد شعراء صفنا الذي شاء ان ينغزل بمعظم فتيات الجامعة . لقد كان يخيل له في كل فترة حب جديد وانه موله ولها حقيقيا ولا تكاد تمر بضعة ايام قد تطول الى اسابيع لا تصل الشعر حتى يكشف انه يحب من جديد . لقد كان يقول عن نفسه انه في حالة حب دائما ، ولا فرق لديه ان كان الحب جديدا ام قديما او معادا .

وكان اكتشافنا للمحوبة الجديدة امرا مسليا تشهد فيه بالبراعة للمكتشفة التي تكون احيانا قد تلقت الاخبار عن زميل ، ولكنها لا تعترف بهذا خوف ان نعرف صلتها بالزميل فتصبح هي نفسها مادة قصة غرامية جديدة نضيف عليها من خيالنا الواسع الشيء الكثير . وكانت محبوبات (شاعر الفزل) يحاولن التخلص من هذه التهمة وينفيها بشدة .

هذا ما كنا نعرفه عن شاعر الفزل ومحبوباته الكثيرات الى ان حدثتني « واعدة » اليوم عن « غره » التي قبل لها ان قصيدة غزل نظمت فيها ، فنهت الى الشاعر وكان في جمع من اصدقائه وطلبت منه ان يسمعا القصيدة .. ولم يصدق المسكين اذنيه وارتابك واحمر وحسب هذا مقبلا من الزملاء ، ولكن غرة اكدت له انها تريد سماع الفزل فيها .

وبعد ان سمعت القصيدة رنتت بعدها اللبنة على كتفه ، وطلبت منه ان يسمعا كل قصيدة بنظمها لها . فشاعر الفزل يحب اليوم حبا حقيقيا ، كان هذا حدث اليوم بل الشهر . شاعر الفزل يحب حبا حقيقيا . عارة تناقلتها اروقة الجامعة وسمعتها انا من واعدة في ذلك اليوم . ضحكت واعدة لوقوم الشاعر في حب حقيقي .. ولم اضحك انا .. لم اكن في حالة تصلح للضحك .. وطالما كنت اطرب لحكايات شاعر الفزل الجديدة ولكني اليوم احسست انه سيتالم ما دام يحب حبا عميقا ، وكنت في نفس الوقت اعرف غرة وكبرياءها معرفة حقيقية فهي لا يمكن ان تهتم بشاعرنا ، ولكنها تريد ان تلهو به . هل اذهب اليها واطلب منها ان تكف عن العبث بقلوب الناس .. ماذا سنظنني ، ستقول اغار منها ! ولكن الشاعر ، الشاعر المسكين الذي ادري كم كان يتمنح حين كان يحب حبا عارضا فكيف وانه احب حبا حقيقيا ؟؟ كان حين بلقي بعض قصائده في حفلات الجامعة يبكي .. كيف سيلقى القصاصد الجديدة وهو في حالة حب عميق ؟؟ وتمثلت امامي عينا الصغير سعدون تكيان .. لا اريد لاحد ان يبكي .. سامنم بكاء شاعر الفزل ، ساطلب من غرة ان تفهمه انها لا تحبه ، او قد احده هو عن حقيقة غرة .. ولكن .. لعل الحساب الحقيقي الطويل الامد يعمق شعره ويصقل نفسه المذبذبة ! لعل بكاء حقيقيا يجعله ان ينتج شعرا حقيقيا وليغفر لي الصغير سعدون ان لم امنع دموعها من الهبوط .

ودخلت غرفة الطالبات وكانت مزدحمة بهن وضجيجهن يتعلق بالسقف فاستلقيت على كرسي ، تأملهن ذاهيات آتيات بين المفاصل والمرآة .. تقف كل واحدة بدورها لتمشط شعرها وترتب ثيابها وتتأمل نفسها بنظرات فيها اعجاب من البعض ويأس من البعض الاخر . ولا ادري كيف شردت افكاري الى مصنع قناني الكوكاكولا ، كنا قد زرناه